محاولات تأصيل نظريات نقدية في التراث الإسلامي
"نظرية عبد القاهر الجرجاني نموذجاً"

Theories of literary criticism in Islamic heritage
"Theory of Abdul Qahir Al- Jurjani as an example"

الدكتور محمد علي غوري*

Abstract

It is not easy to defend the Arabic and Islamic criticism these days where many are trying to weaken and reduce its value. The major source of these accusations is the Orientlists who detest Islam.

In this research I explained the relationship between Arabic literature and the Western literature and criticism. Then I mentioned the attempts made by some modern critics to develop some critical theories in our Islamic heritage. After that, I discussed the possibility of referring some theories to our ancient critics, which are connected to the recently developed thoughts. I also tried to draw a picture of the critical theory of Al- Imam Abdul Qahir Al- Jurjani, which has a strong connection with his "Annazm" theory. I explained Al- Jurjani's theory through critical issues he discussed in his books, such as "Allafz wa Almaana"(the word and the meaning), mystery and the issue of shaping the poetic image.

Finally, I presented a brief summary, findings of the study, and also made some recommendations. One of the strong recommendations is that Imam Al- Jurjani needs more care and attention from us to link his ideas with the latest findings of modern criticism.

المقدمة

ينفي جل النقاد المحدثون وجود أية نظرية نقدية في تراثنا، ويرجعون الأمر إلى عدم وجود فكر

---

* الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الأدبية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام أباد، باكستان.

جمعي لديهم، وأن نظراتهم النقدية كانت نظرات جزئية متفرقة وليست كلية أو جامعة، ولم يعرفوا ياء العلمائية الموجودة في مصطلح النظرية. ربما كانت لديهم نظرات فطرية انطباعية متأثرة بالظروف والأحوال والبيئات التي عاشوا فيها، أما نظريات فقد كانوا أبعد الناس عنها، لأنها تحتاج إلى عقل جمعي شمولي قادر على الوصول إلى أصول وقواعد كلية ونظرة علمية موضوعية.وفي نفس الوقت تنسب إلى فلاسفة اليونان والرومان القدامى نظريات، رغم أن ما وصلنا عنهم ليس كافياً لأن يطلق عليه مصطلح نظرية، فيقال بلغة جازمة أكيدة: نظرية المثل عند أفلاطون ونظريةالتطهير عند أرسطو، وهما من فلاسفة اليونان، ونظرية الجليل عند لونجينوس الروماني وهكذا عند الآخرين. وهؤلاء أقدم من نقاد العرب. ولو بحثنا في أسباب ذلك لوجدنا تعصب الغرب لفلاسفتهم، ولا ننكر أهمية أفكار أفلاطون وأرسطو وغيرهم من فلاسفة اليونان والرومان، ولكن إذا كانت عندهم نظريات في ذلك العهد السحيق، فلم لا تكون لدى مفكرينا ونقادنا نظريات؟ والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فما زالت أوروبا تتنازعها أفكار هؤلاء إلى اليوم، حتى في أحدث النظريات النقدية الغربية، وليراجع القارئ كتاب "حكمة الغرب" للأستاذ برتراند رسل، ترجمة الدكتور جلال الشرقاي[1].

تكمن المشكلة في أنهم اهتموا بتراثهم اهتماماً كبيراً لأسباب كثيرة لا مجال لمناقشتها هنا، بينما نسينا تراثنا ولم نهتم به كما يجب، وحين نبهنا المستشرقون إلى كنوز التراث الإسلامي العظيم، التفتنا إليه، وأخذنا ندرسه، ولكن للأسف دراسة تاريخية محضة، دون ربط أفكار أجدادنا بواقعنا اليوم، ولا بواقع أدبنا الذي أصبح نسخة من أدب الغرب. درسنا تراثنا الفكري والأدبي والنقدي على أساس أنه جزء من التاريخ فحسب، دون أية محاولة لربطه بالمشاكل الفكرية والأدبية والنقدية التي تواجه الأمة الإسلامية العربية، فعزلناها عن حاضرنا وما يحدث فيه، والضبابية والهلامية التي تحيط تراثنا سببها عدم دراستها الدراسة التي تستحقها في ضوء مستجدات العصر في عالم النقد الحديث.

فالقراءات والدراسات التي تمت حتى الآن ظلت في معظمها غير قادرة على استخراج ما في تراثنا من قيم باقية وصالحة عبر الأزمنة والعصور.

ربما كان هذا التجاهل جزءاً من المؤامرة ضد الإسلام وكل مظاهره، وأهمها اللغة العربية والتراث الإسلامي والفكر النقدي والأدب العربي القديم، لذلك توارثنا الأفكار التي نشرها المستشرقون حول فكرنا وأدبنا ونقدنا من أنه جزئي فطري انطباعي غير شمولي، وبالتالي لم يصل نقادنا إلى ما يطلق عليه اليوم اسم نظرية. وهذا الهجوم ليس له مبرر إلا أن النقد العربي –في مجموعه، وفي عرفهم– ليس إلا نقداً إسلامياً.

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو أننا حين نتناول فكر نقادنا العرب القدامى –والنقد فكر بالدرجة الأولى– نجد فيه تسلسلاً وشمولية ومنطقاً وأصولاً التزموا بها في كل أفكارهم، وذلك باعتراف الكثيرين، فلماذا يصر البعض وخاصة المتأثرين بالغرب على وصفهم بالوصف الذي سبق ذكره؟ الأمر يحتاج إلى مراجعة.

لم لا يتحدث الدارسون للتراث النقدي الإسلامي عن نظرية الطبقات عند ابن سلام الجمحي؟ ولم لا يعرجون على نظرية الشعر عند ابن قتيبة؟ ولم لا يدخلوا إلى عالم نظرية ابن طباطبا في وظيفة الشعر والأدب؟ وعالم نظرية البديع عند ابن المعتز؟ وهكذا عند الأمدي والقاضي الجرجاني وغيرهم ممن امتلأت بهم ساحة النقد العربي الإسلامي عبر قرون طويلة، بدأت في العصر الجاهلي من القوم الذين نزل عليهم القرآن وتحداهم بأسلوبه البليغ، مروراً بعصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعباسي الأول والثاني وعصر الممالك وانتهاءً بالعصر العثماني.

ولكنهم اضطروا إلى أن يقبلوا وعلى استحياء وجود نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وسموها بهذا المصطلح الحديث اعترافاً بفضل هذا الرجل.

سأحاول في بحثي هذا أن ألتمس معالم نظريات في النقد الأدبي العربي الإسلامي من خلال أفكار وآراء نقادنا الكبار، وعلى رأسهم أمام البلاغيين العلامة عبد القاهر الجرجاني، محاولاً رسم صورة عن نظريته في النقد الأدبي، ونظريته في النقد –في نظري– أعمق وأشمل من نظرية النظم المعروفة عنده، فالنظم أهم أجزاء نظريته الشاملة في النقد الأدبي، التي اعتمد فيها على أساسين هما الشعر واللغة، وركز على الجانب التطبيقي، الذي تكاد تخلو منه النظريات النقدية الغربية الحديثة، حيث تجردت تجريداً عالياً، مبتعدة عن الأمثلة والنماذج من النصوص الأدبية، ولا يغيب عنا أن المهمة الأساسية للنقد هي تعقب أفضل النصوص الأدبية في عناصر تكوينها الفنية والكشف عما فيها من إبداع.

ولا يخفي علينا تأثير عبد القاهر الجرجاني في النقد العربي القديم والنقد الغربي الحديث. يقول الدكتور محمد زكي العشماوي –مشيداً بفكر الجرجاني النقدي وتأثيره في النقد الحديث– في حوار منشور على الشبكة الدولية، أجراه معه الروائي المصري محمود حنفي: إن ما وصل إليه الجرجاني في تفكيره النقدي –في كثير جداً مما طرحه من قضايا– هو نفس ما وصل إليه الغرب في القرن العشرين، وخاصة في كتابه الشهير "دلائل الإعجاز".

سأحاول في هذا البحث أن أؤصل لبعض النظريات في النقد العربي الإسلامي القديم، ومنها نظرية عبد القاهر الجرجاني في النقد، وقولبتها في شكل نظرية نقدية متكاملة من خلال القضايا النقدية التي أثارها في كتبه.

أهمية النقد العربي القديم

نعيش اليوم عصر النظريات، ففي كل يوم نفاجأ –نحن في الشرق– بنظرية جديدة تظهر على الساحة النقدية في الغرب، وكثير منها جاء رد فعل على سابقتها لتطرفها، وسرعان ما تتطرف هي الأخرى.

فكرة البحث تتجلى في محاولة الوصول إلى مقدمة أو مدخل إلى نظريات في النقد الأدبي العربي القديم. وأنا حين أقول نقد عربي أقصد به النقد الإسلامي؛ لأن النقد العربي لم يكن له شأن حقيقي إلا في ظل الحضارة الإسلامية، وحين أقول نقد، أقصد به فكر؛ لأن النقد في حقيقته فكر، لذلك فإن النقد العربي أو الفكر الإسلامي يجب الاهتمام به، وليس الأمر كما قال المستشرقون وأبواقهم من بعدهم من أن النقد العربي خال من الفكر المنظم، لذلك هم لم يعرفوا ما يمكن أن نطلق عليه اسم نظرية أو نظريات. لاحظت من خلال قراءتي لكتب النقد التي تعرضت للنقد الأدبي العربي القديم أنها لا تعرضه بالشكل الذي يشفي غليلي وغليل كل غيور على تراثه العظيم، فهي بعد أن تدعي أنها سوف تحاول تلمس خيوط النقد العربي الإسلامي القديم وجمعه في قوالب عامة، لا تلبث أن تنغمس في تفاصيل الآراء الجزئية عند النقاد العرب القدامى، وغالباً ما تكون هذه الدراسات تطبيقية، لا يخرج منها الباحث المعاصر بما ينم عن فكر منظم عند قدمائنا. وهذه الدراسات تنقصها التجريد والتنظير الذي اعتدناه عند قراءة ما يكتب عن النظريات النقدية الحديثة.

سأدرس في هذا البحث إمكانية استخلاص نظرية أو نظريات ذاتية في النقد العربي الإسلامي، متتبعاً جهود أستاذة كبار أمثال الدكتور عبد العزيز حمودة وآخرين، وهذا الأمر يزعج الغرب كثيراً، لإيمانه الراسخ بما أسماه بصراع الحضارات وبالعولمة وأحادية النظام العالمي وبالأفكار الحداثية وما بعد الحداثية، وهذا كله لن يسمح بمثل هذه المحاولات.

سأبين فيما يلي أهمية النقد العربي القديم، وعلاقته بالنقد الغربي ونظرياته الحديثة؛ وخاصة الحداثية وما بعد الحداثية، ثم أتعرض لمحاولات نقادنا المحدثين تشكيل ما يمكن أن يدخل تحت مسمى نظرية أو نظريات في النقد الأدبي العربي القديم، ثم تعرضت إلى أسس هذه النظريات عند نقادنا القدامى أمثال ابن سلام وابن قتيبة وابن طباطبا وغيرهم وعلى رأسهم إمام البلاغة والنقد عبد القاهر الجرجاني.

أما ما يتعلق بالأدب العربي فقد حدثت طفرة كبيرة بين الأدب العربي القديم والأدب العربي الحديث، يعود سببه إلى ذلك الصراع الذي بلغ أوجه في بداية العصر الحديث مع بداية الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب تحت غطاء البعثات العلمية، والذي واكب ازدياد نشاط المستشرقين، وكثرة جولاتهم وصولاتهم في البلاد الإسلامية، واهتمامهم الزائد بالتراث العربي والإسلامي لأهداف خاصة، وتأسيسهم لمعاهد ومراكز تعنى بهذا التراث. كان من نتيجة هذا الصراع الذي كان بين القديم المتصل بالتراث العربي والثقافة الإسلامية وبين الجديد المتأثر بالأدب الغربي الحديث واتجاهاته انتصار الجديد على القديم، وهكذا اصطبغ أكثر الشعر والنثر العربي بالصبغة الغربية الحديثة، ولا مبالغة في القول: إن الأدب العربي الحديث بالشكل الذي آل إليه أصبح أقرب إلى الأدب الغربي منه إلى الأدب العربي الذي عرفناه لقرون طويلة، لذلك فإن الأدب العربي الحديث يختلف عن الأدب العربي القديم أسلوباً وموضوعاً. كما نلاحظ أن كتب النقد العربي الحديث تتميز بالتجريد العالي مثل كتب النقد الغربي، وإنها كتبت بأسلوب ولغة تختلف كثيراً عن اللغة التي عهدناها منذ مئات السنين، حتى وُصف هذا الأسلوب الجديد بأنه غربي ولكنه مكتوب بحروف اللغة العربية. من خلال ما ذكر، نصل إلى نتيجة هامة هي أن النظريات الأدبية والنقدية الحديثة تناسب الأدب العربي الحديث، ولا تناسب بأي حال من الأحوال الأدب العربي القديم، ولذلك نجد طلاب المدارس الدينية في باكستان وفي شبه القارة الهندية يفهمون الأدب العربي القديم، ولكنهم لا يستطيعون فهم طلاسم الأدب العربي الحديث، وخاصة ما كتب منه في ظل الحداثة وما بعد الحداثة. وهذا أكبر دليل على ثقافة الشرخ التي تحدث عنها الدكتور عبد العزيز حمودة بين هذين الأدبين في كتبه الثلاثة؛ المرايا المحدبة و "المرايا المقعرة" و "الخروج من التيه".

إذا كان ذلك كذلك، فيمكن دراسة الأدب العربي الحديث وفقاً للنظريات النقدية الغربية الحديثة، إما أن نخضع النماذج الساطعة في سماء الأدب العربي القديم لهذه النظريات فهذا أمر غير مقبول، ثم إن مقارنة النظريات النقدية الحديثة بالنقد العربي القديم لا تخلو من خطورة، ومن هنا نشأت مفاهيم خاطئة عن تراثنا النقدي من أنه سطحي وقاصر ولا يهتم إلا بالقشور مصدرها المستشرقون ومن تبعهم من أبواقهم، ونحن من حيث علمنا أو لم نعلم نردد دعاوى المستشرقين دون دراسة أو تمحيص. وهم إذ يفعلون ذلك، يريدوننا أن نترك دراسته والاهتمام به، ولا ننسى أن النقد العربي ليس في حقيقته إلا نقداً إسلامياً، حيث إن هذا النقد لم ينفصل يوما عن البيئة التي عاش في ظلالها، ولم ينعزل عن الظروف التي مر بها والتي سادت المجتمع العربي عند تأليف العلوم العربية والإسلامية المنبثقة من دراسة القرآن الكريم ومحاولة التعمق في فهمه[٢].

نشأ الأدب العربي إذن في عصره وبيئته، فهو صورة صادقة عن الزمان والمكان الذي نشأ فيه، ومن الخطأ أن نطبق عليه ما وصل إليه النقد الغربي وهو بدوره نشأ في بيئته واقترن بآدابه، والبيئة الغربية تختلف تماماً عن البيئة التي نشأ فيها الأدب العربي القديم، والنقد لا يفرض على الأدب فرضاً، وإنما يستنبط من نصوصه المختارة على أنها خواص وجدت فيها فأكسبتها جمالاً وقوة، وجعلتها أكثر قدرة على التأثير والخلود[٣]. لاشك أن قوانين النقد تنشأ من دراسة أدبه الذي كتب بلغته، والتي تؤلف من خواصه وطوابعه الممتازة، ولا يمكن أن نعكس الأوضاع فنضع العربة أمام الخيول.

هل عرف العرب نظرية أو نظريات في النقد الأدبي خلال عصور ازدهارهم؟

كلمة نظرية كلمة جديدة استجدت في العصور الحديثة، وعلى هذا نستطيع أن نقول إن القدماء لم يعرفوا نظريات بالمفهوم الشكلي لهذه الكلمة، وأن هذه الكلمة لم ترد في تراثنا النقدي القديم. يقول الدكتور محمد صالح الشنطي: "غابت الياء الدالة على تبلور المصطلح في دلالته على ما يسمى "العلمائية" أي تشكل علم قائم بذاته، ولم يكن هذا الغياب بلا مدلول، بل دل على غياب الصياغة المتكاملة لمفهوم العلم في صيغته المتكاملة ليبقى مفتوحاً على أشتات مجتمعات من الملاحظات والاجتهادات والأفكار، فغاب الاتساق والتثبت كعنصرين من عناصر هذا التكامل المعرفي الذي وسم النظرية في دلالتها المعاصرة"[٤]. ويضيف أن أقرب الكلمات إلى الحقل المعرفي للنظرية هي كلمة "نظر" بمعنى التفكير والتأمل والتدبر والتوقف عند الشيء، وقد شاعت هذه الكلمة عند قدماء النقاد العرب[٥].

ولكننا إذا دققنا النظر وتأملنا ما ذكره القدماء أمثال ابن سلام الجمحي وابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني والقرطاجني وغيرهم، استطعنا أن نلتمس التأصيل في كلامهم، ولاحظنا كذلك الاتساق والتثبت اللذين أنكر الدكتور محمد صالح الشنطي وجودهما في النقد العربي القديم. وكذلك نستطيع أن نتحسس ملامح ما يمكن أن نسميه نظرية. وإذا كانت النظرية تعني –كما يذكر الدكتور الشنطي– في المفاهيم الفلسفية الغربية المعاصرة التي تبناها كثير من الكتاب اليوم: مجموعة من الأفكار والمفاهيم المجردة المنتظمة على نحو ما، والتي تطبق على ميدان المعرفة بشكل خاص[٦]، فإن جهود نقادنا القدامى في مجال النقد الأدبي لا تبتعد كثيراً عن هذا، حيث يمكن أن نصل إلى مقاييس نقدية عامة للنقد القديم، وخاصة عند الأمدي وعبد القاهر الجرجاني[٧].

محاولات تأصيل نظريات في النقد العربي الإسلامي القديم

هل يمكن أن نجمع آراء النقاد العرب المسلمين القدامى وأفكارهم في سياقات معينة لتشكيل ما يمكن أن نسميه نظرية أو نظريات في النقد العربي الإسلامي القديم؟ يرى الدكتور عز الدين إسماعيل

أن أغلب الدراسات الحديثة عن تراثنا النقدي تكاد تنحصر في أهون الدوائر العملية دون أن تنشغل بتأصيل نظرية[٨].

ظهرت على الساحة النقدية كتب عديدة تحمل عناوين شائقة مثل: أسس النقد العربي القديم أو أصوله أو اتجاهاته العامة، وأول كتاب حاول أن يجمع شتات القضايا النقدية المبثوثة في كتب النقد القديمة وفي ثنايا كتب التراث هو كتاب "تاريخ النقد الأدبي عند العرب" للأستاذ طه أحمد إبراهيم الذي عرض القضايا النقدية على أنها جزء من التاريخ ولم يربطها بالواقع الأدبي الذي نعيشه اليوم، وقد طغت على ما كتب هو –وأغلب من جاء بعده من الباحثين– المناهج التاريخية أو الوصفية[٩]. وعرض نقدنا بهذه الطريقة يؤكد ما قاله المستشرقون عنه من أنه جزئي أو انطباعي، وأنه نابع عن عقل لا جمعي، إلى آخر ما ذكره المستشرقون عن النقد العربي القديم. ونتيجة لدراسة النقد العربي بهذه الطريقة نلاحظ أن كثيراً من القضايا النقدية التي امتلأت بها ساحة النقد الأدبي عند العرب في تراثنا العريق لم توف حقها من البحث والدراسة؛ لأن الباحثين وفقا لهذه المناهج –وأقصد بها التاريخية– يكونون مشغولين بتتبع النواحي التاريخية، ودارس تاريخ الأدب والنقد لا يتذوقهما، وإنما يركز على النصوص التي تخدم الإشارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فتصبح الأعمال الأدبية والنقدية مجرد شواهد تخدم الأهداف التاريخية، مما يؤدي إلى جمود تلك الدراسات وفقدانها الحيوية. وأنا هنا لا أنكر أهمية التاريخ في دراسة أي فن أو علم، فهو الذي مكننا من التعمق في معرفة كثير من القضايا، ومنها القضايا النقدية، وعلاقتها بالبيئة والوقوف على تطورها، ولكن أن يتم التركيز عليها على حساب دراستها فنياً فهذا ليس مقبولاً، لأن دراسة تاريخ الأدب والنقد لا تعني عند الكثيرين سوى السرد الزمني للرجال الذين كتبوا في هذين الفنين[١٠].

ثمة محاولة أخرى للوصول إلى نظرية في النقد العربي القديم قام بها الدكتور محمد صالح الشنطي[١١] في مقاله الذي يحمل عنوان: "نظرية النقد العربي القديم في ضوء الخطاب الثقافي العام" المنشور على الشبكة الدولية، يقول فيها إن القدماء لم يعرفوا نظريات في النقد الأدبي وإنما كان لديهم خطاب نقدي عبر الأزمنة المختلفة حسب السلطة المهيمنة على الساحة الأدبية والنقدية في كل عصر، فيمكن دراسة النظريات النقدية القديمة في إطار الخطاب الثقافي العام من خلال المفهوم الأوسع والأشمل للعناصر المهيمنة عليه. ما يهمنا في هذا المقام أن صاحبه حاول أن يتحدث عن النقد العربي القديم بشيء من التجرد، واكتفى من محاولته لاستخلاص نظرية في النقد العربي القديم بالوصف العام من خلال الخطاب الثقافي العام ومن خلال تتبعه له عبر المراحل التاريخية المختلفة، ولكنه لم يستطيع – باعترافه هو نفسه– من الوصول إلى ما يمكن أن نطلق عليه اسم نظرية؛ لأن هذا الأمر يحتاج إلى جهد

أكبر. يقول الدكتور الشنطي: "وليس من الممكن في هذه العجالة بسط القول في قضايا تلك النظرية من هذا المنظور، ولكن حسبنا الإشارة إلى الإطار العام، على أن تكون لنا عودة تمكننا من شرح أوفى أو تحليل أعمق"[١٢].

ومن الذين طالبوا بقراءة جديدة لتراثنا الأستاذ محمد خير شيخ موسى الذي قال في كتابه "فصول في النقد العربي وقضاياه": "وكان جل اهتمامنا في هذه الفصول منصباً على النظر إلى القضايا النقدية المطروحة فيها نظراً كلياً وموحداً، وإحكام الصلة بين آراء النقاد المختلفة فيها، ومواقفهم منها، وأولينا الجانب التطبيقي في النقد العربي عناية خاصة...دون أن يكون لهذه الآراء أو ذلك المنهج صدى في كتب المعاصرين وأبحاثهم، مما يشكل حلقة مفقودة في دراسة النقد العربي ومناهجه عبر مراحل تطوره المختلفة"[١٣]. من التعسف أن نقارن بين النقد الغربي والنقد العربي لسبب بسيط هو اختلاف البيئة أو المكان إذا كنا نقارن بين النقد اليوناني القديم والنقد العربي القديم، واختلاف الزمان إذا كنا نقارن بين النقد الغربي اليوم والنقد العربي القديم. ومع ذلك يمكننا أن نقارن بشيء من الإجمال بين النقد العربي القديم والنقد اليوناني القديم متساءلين: هل عرف اليونانيون القدامى نظريات نقدية؟

يذكر النقاد الغربيون ونقادنا —للأسف– بالتبعية نظرية المثل والمحاكاة عند أفلاطون التي وصلتنا عن طريق محاوراته، ونظرية التطهير عند أرسطو، ونظرية المتعة والفائدة عند هوراس[١٤]، ونظرية الجليل عند لونجينوس[١٥]، وغيرها من النظريات. هكذا لقنونا في كتب الأدب والنقد الحديثة بأن آراء هؤلاء اليونانيين والرومان في قضايا النقد والأدب المختلفة إنما هي نظريات، وما علينا إلا أن نسلم بها دون نقاش، أما النقد العربي فهو صادر —في رأي هؤلاء– عن عقل لا جمعي وجزئي وانطباعي، والأفكار لديهم غير مترابطة، ولا يجمعها جامع، وبالتالي لا يمكن وصفها بالنظريات. لماذا بقرتهم دائماً حلوب وبقرتنا عجفاء لا خير فيها؟! إذا كانت لدى اليونانيين القدامى نظريات، لم لا تكون لدينا نظريات؟

المشكلة ليست في وجود نظرية أو نظريات في النقد العربي الإسلامي القديم، لأن هذا المصطلح جديد لم يكن موجوداً في ذلك الزمن، ولكن المشكلة هي في وجود فكر منظم. هل كان لدى النقاد العرب فكر منظم أو لم يكن لديهم هذا الفكر؟ وما قيمة هذا الفكر في ارتقاء الذوق الإنساني؟

لا شك أن الأدب العربي القديم، وبالتالي النقد العربي الإسلامي القديم، قام على أسس متينة من الأفكار التي ما زلنا نعجب بها أيما إعجاب، ويحق لنا —بل يجب علينا– أن نغربل تلك الأفكار والآراء، ونستخلص قواعد وأصولاً ننطلق منها في تشكيل ما أطلق عليه اليوم نظريات، وأن نؤصلها.

نحن بحاجة إذن إلى نظرية أصيلة في النقد العربي نابعة من أسسنا لا أسس غيرنا، نابعة من أدبنا الحقيقي المرتبط بتراثنا العظيم. وأنا هنا لا أعترض على التقارب والتعاون بين الآداب والثقافات والعلوم والفنون، فديننا يأمرنا بالتعاون على كل ما فيه خير، ولكني أعترض على التأثر من جانب واحد. كثير من كتابنا وأدبائنا ونقادنا اليوم يولون شطرهم نحو الغرب يستنيرون بآدبهم في كتاباتهم وأعمالهم الفنية منبهرين بها أشد الانبهار، وأخذوا يقلدونها حتى أصبح أدبهم نسخة عنها في صورتها العربية. كأنهم بهذا يلغون أفكارهم التي نشأوا عليها قروناً طويلة من الزمان، ومن صور إعجابهم بكل ما يأتينا من الغرب إعجابهم بالمسرحيات اليونانية القديمة التي تزخر بعقائد فاسدة وغير منطقية وبعلاقات محرمة تصف الفساد وقد استشرى في أسر كاملة[١٦].

أتساءل حين أرى بعض النقاد المحدثين وهم يحاولون صياغة نظرية في النقد العربي القديم في ضوء مكتسبات النقد الغربي الحديث عن جدوى هذه المحاولات، أليس من الأفضل أن نترك النقد القديم على نقائه وصفائه حتى لا نفسد جماله حين نقيسه بمقاييس غريبة عنه، هذا إذا كنا لا نستطيع أن نشكل نظريات ذاتية تنطلق من أسسنا وأصولنا الأدبية والفكرية. علينا أن نحاول صياغة نظريات نقدية ذاتية تناسبنا وتناسب أدبنا الحقيقي وآمالنا الحقيقة وتناسب تراثنا وديننا وعقائدنا، وأن نرأب الصدع، وأن نضع نهاية لثقافة الشرخ التي نعيشها.

بعد هذا التطواف في جوانب الموضوع المختلفة أرجو أن أكون قد وفقت –على الأقل– في التنبيه إلى أهميته أولاً ثم إلى ضرورة بذل جهود حقيقية لا في إعادة كتابة جزئيات ما ذكره نقادنا القدامى، بل دراستها وتطويرها واتخاذها أسساً لمحاولات صياغة نظريات تمثل فكرنا ونقدنا لها مكانتها في عالم اليوم، على الأقل لنعيد ثقة أبنائنا وأجيالنا في تراثنا العريق.

نظريات نقدية عند أعلام الفكر الإسلامي: نظرية عبد القاهر الجرجاني النقدية على سبيل المثال:

يمكن أن نستخلص نظريات نقدية من تراثنا الإسلامي، وذلك من خلال آراء نقادنا القدامى ومفكرينا العظام، فعلى سبيل المثال يمكننا أن نستخلص نظرية مثل نظرية طبقات الشعراء عند محمد بن سلام الجمحي من خلال كتابه "طبقات فحول الشعراء"، بعد أن نبحث فيما قاله عن الأسس التي بنى عليها هذه الطبقات، من الجودة والكثرة وتعدد الأغراض الشعرية وأثر البيئة على الشاعر وعلى شعره.

ومن ملامح نظرية الشعر عند ابن قتيبة أسس اختياره الشعراء الذين ضمنهم في كتابه "الشعر والشعراء"، حيث اختار أجود الشعراء وأشهرهم، ولم يحصهم كلهم في كتابه؛ لأن ذلك مستحيل كما ذكر هو نفسه في كتابه. ولم يكن اختياره للشعراء لتقدمهم أو لتأخرهم، بل لجودة شعرهم فقط، ومن هنا نستطيع أن نأخذ معايير الشعر الجيد من خلال اختياراته، ونشكل منها نظرية في الشعر، بالإضافة إلى قضايا نقدية أخرى لديه تساهم في بناء النظرة الشمولية وبالتالي نظرية، ومن هذه القضايا تقسيمه للشعر إلى أضرب أربعة، وما إلى ذلك مما تناثر في كتابه.

وذكر ابن طباطبا في كتابه "عيار الشعر" قضايا نقدية هامة يمكن أن نستنتج منها نظرية في وظيفة الشعر، فقد ذكر أن ما عرض على الفهم الثاقب فقبله واصطفاه فهو شعر جيد، وما مجه ونفاه فهو ناقص، وهو هنا يتحدث عن ثقافة الناقد وذوقه، وعلة القبول لديه الاعتدال كما أن الاضطراب علة عدم القبول، وإذا اجتمع اعتدال الوزن وصواب المعنى وحسن الألفاظ تم قبوله، وإن نقص جزء من هذه الأجزاء كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه، وإذا اجتمعت هذه الأجزاء كان الشعر أنفذ من نفث السحر، وأخفى دبيباً من الرقي، وأشد إطراباً من الغناء، فسلّ السخائم وحل العقد وسخى الشجاع وشجع الجبان. وهنا تتجلى وظيفة الشعر التي يمكن أن تكون أساساً لنظرية نقدية عند ابن طباطبا.

نأتي الآن إلى عبد القاهر الجرجاني، فنتساءل أولاً: من هو عبد القاهر الجرجاني؟

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، فارسي الأصل، جرجاني الدار. عاش في القرن الخامس الهجري، حيث توفي سنة ٤٧١هـ، وذلك في العصر العباسي الثاني حين كانت الدولة العباسية منقسمة إلى دويلات صغيرة، ورغم ذلك كانت الدولة الإسلامية تواكب حركة علمية عظيمة، من شرقها إلى غربها، ومن جنوبها إلى شمالها، إذ كان التنافس قوياً بين الإمارات والدويلات على العلماء والأدباء، وكان ذلك مبعث تفاخر بينها، وكانت الأمة الإسلامية آنذاك تعج بمختلف الأحزاب والمذاهب الفقهية والفكرية، وقد أنجبت جرجان علماء وأدباء كثيرين، أشهرهم في القرن الخامس هو الإمام عبد القاهر الجرجاني[١٧].

كان عبد القاهر على مذهب الإمام الشافعي في الفقه، وكان متكلماً على مذهب أبي الحسن الأشعري، درس النحو على أبي الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي ابن أخت أبي على الفارسي، وألف عدداً من الكتب في النحو، كما ألف في البلاغة أهم كتبه هي "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة". وممن تأثر بهم سيبويه وأبي على الفارسي والجاحظ وابن قتيبة وقدامة والآمدي. وكانت نظرية النظم محور بحوثه وأساس أفكاره البلاغية والنقدية[١٨].

النظم في اللغة هو التأليف والتصنيف، وهذه الكلمة التي أطلقها عبد القاهر على نظريته ذكرها قبله القاضي عبد الجبار والجاحظ والرماني، ولكنهم لم يحددوها ولم يوضحوا معناها كما فعل عبد القاهر الذي حددها ووضحها، ووضع عليها الأدلة والشواهد[١٩].

يقول عبد القاهر متحدثاً عن النظم: "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[٢٠]. انطلق عبد القاهر في نظريته من النحو، وفي ذلك يقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك على الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنه، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها[٢١] ويقول في معرض إثبات أساس نظريته: وإن الألفاظ لا تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم نراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر[٢٢].

يمكن استشفاف ملامح نظرية عبد القاهر النقدية من خلال بعض القضايا النقدية التي أثارها في كتابيه المشار إليهما، مثل قضية اللفظ والمعنى وقضية الغموض وقضية الصورة الشعرية من خلال التشبيه والاستعارة.

من الجدير بالذكر قبل الدخول في القضايا النقدية التي تعرض لها عبد القاهر في كتبه أن أذكر أنه انطلق في نظريته النقدية من الشعر والنحو، فقد اتخذهما أساساً لها، وهي نظرية شاملة في النحو والبلاغة والنقد. وما يهمنا في هذا البحث هو الناحية النقدية من هذه النظرية. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن اهتمامه النقدي لم يقتصر على الجانب النظري، وإنما شمل الجانب التطبيقي أيضاً، لأن مهمة الناقد هي تعقب النصوص الممتازة في عناصر تكوينها الفنية والكشف عن القدرات الإبداعية فيه، لذلك انصب اهتمامه على نصوص القرآن الكريم أكثر.

نجد إشارات واضحة إلى قضية اللفظ والمعنى في كتاب "دلائل الإعجاز" وخاصة من خلال وقفات عبد القاهر عند آيات القرآن الكريم لتحليل أوجه الإعجاز البلاغي فيها. عالج عبد القاهر قضية اللفظ والمعنى وعلاقة كل منهما بالآخر، وأيهما أحق بأن يوصف بالبلاغة والفصاحة في إطار تفسيره لقضية النظم التي جعلها أساساً للإعجاز القرآني، وهو حين يخوض في هذه القضية نلحظ فيه عقلاً منطقياً منظماً يفيد من روح المنطق لا من شكله، وبجوهره دون مظهره، فهو يرى أن وصف اللفظ بالفصاحة لا يخلو من أحد أمرين؛ إما أن تكون الفصاحة مرتدة إلى ذات اللفظ، وإما إلى تركيبه مع الألفاظ الأخرى، وهو يرجح الرأي الثاني أي أن فصاحة الألفاظ ترتد إلى الصفات المعقولة أي التراكيب التي تدرك بالقلب، وليس للألفاظ صفات معقولة إلا من جهة دلالة هذه الألفاظ على

معانيها، وعلى هذا يفرق عبد القاهر بين كلام وكلام، لا من حيث استبدال الألفاظ بألفاظ أخرى، ولكن من حيث مناسبة هذه الألفاظ للمعاني المقصودة، ولا مزية لعبارة على أخرى إلا إذا كان لها تأثير في المعنى ليس لصاحبتها. ويلخص عبد القاهر رأيه في هذه القضية بقوله: "وجملة القول إنا لا نوجب فصاحة في اللفظ مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، ولكن نوجبها لها من حيث هي موصولة بغيرها متعلق معناها بمعنى ما يليها"[٢٣]. فهو يجمع بين اللفظ والمعنى، ويسوي بين خصائصهما، ويجعلهما شيئاً واحداً يعتمد على الصياغة. يرى الجرجاني أن الخطاب كل متكامل، لا يمكن فصل الجانب اللغوي فيه عن المقام الذي يرد فيه، وبذلك يتعاضد السياق اللغوي وسياق الحال على إبراز الدلالة وفهم مرامي الكلام، وهذا ما تقوله أحدث المناهج النقدية المعتمدة على الأسس اللغوية.

أما الغموض فقد أدرك الجرجاني أهميته بأنماطه المختلفة في تشكيل بنية النص الإبداعي، ومنحه الخصوصية الفنية والجمالية، حيث أن النص الإبداعي البعيد عن الغموض الفني نص سطحي يبعد القارئ عن العملية الإبداعية، ولا يشاركه فيها من خلال انضمامه إلى دائرة التأويل والتفسير وتعدد المعاني والاحتمالات[٢٤]. إستخدم الجرجاني مصطلح الغموض ومرادفاته مثل التوسع والغرابة والتعقيد غير المقصود والتعمية ومعنى المعنى، وبين أن الغموض يقع في المعنى الثاني، وهو المعنى غير المباشر. يجسد الغموض عند الجرجاني المستوى الفني للعمل الإبداعي بوصفه جوهر الشعر وأساسه، لأنه يثير الدهشة والاستفزاز للمتلقي، ويضفي الإبداع إلى النص. وقيمة المجاز والاستعارة والتمثيل تكمن في الغموض الذي يمنح النص حياة وقوة، ويجعله نصاً إبداعياً متجدداً عند متلقيه، وعد الجرجاني التباين والتنافر في أطراف التشبيه والاستعارة أكثر قدرة على شد المتلقي وإثارته واستفزازه لما في هذا التنافر من غموض يحرك العقل والحس معاً[٢٥].

الصورة الشعرية: استطاع الجرجاني أن يدرك بفطنته أهمية دور الألفاظ والمعاني والغموض في تشكيل الصورة الفنية.

قدم الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز" نظرية للنقد الموضوعي، لا تعتمد على الهوى في النظر إلى النص الأدبي وإنما تفسر ما فيه من جمال على أساس من معاني النحو الإضافية، وهذه هي نظرية النظم، وفي كتابه أسرار البلاغة يعالج مبحث الصورة الشعرية بإعتباره مبحثاً نقدياً لا بلاغياً، لأنه اهتم بالجذور النفسية للصورة في نفس قائلها، والآثار المتوقعة في نفس سامعها، مع الاهتمام الدائم بالآثار الجمالية التي تتركه الصورة على النص الأدبي، والمقارنة بين الصور المتماثلة أو المتقابلة، وذلك الصنيع من مهام الناقد الأدبي[٢٦].

والصورة الشعرية تتشكل من مباحث علم البيان، وأهمها التشبيه والاستعارة. أما التشبيه فيفرق البلاغيون بين ثلاثة أنواع له؛ التشبيه المفرد والتشبيه المتعدد والتشبيه التمثيلي، والأخير أقربها إلى روح الصورة الشعرية النابضة، والجرجاني وقف وقفة مفصلة أمام هذا النوع لأنه أكثر إيغالاً في الخيال، حيث لا يقف عند لمحة التشابه السطحية البسيطة، ولكنه يتعداها إلى تلمس الجوانب الدقيقة بين الصورتين المتقابلتين، فينتج عنها هيئة مشتركة. أدرك عبد القاهر قيمة الخيال في تكوين الصورة الشعرية، وخاصة في التشبيه التمثيلي، فهو في رأيه الأرض التي يتم عليها بناء الصورة. ويربط عبد القاهر بين الصورة التمثيلية وبين اللغة الحسية في نشأتها الأولى سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، وهذا التعليل هو نفس التعليل الذي يقدمه النقاد المحدثون حين يربطون بين الصورة الشعرية والأسطورة، حيث كانت الأسطورة في القديم تعبيراً حسياً، فاختفت الأسطورة وحلت محلها روحها في الصورة الشعرية[٢٧]. وقد عد الجرجاني التباين والتنافر بين أطراف التشبيه أكثر قدرة على شد المتلقي وإثارته واستفزازه، لما في هذا التنافر من غموض يحرك العقل والحس معاً، وفي ذلك يقول الجرجاني: "كلما كان الشبه بين الشيئين أخفى وأغمض وأبعد من العرف كان الإتيان بكلمة التشبيه أبين وأحسن وأكثر في الاستعمال"[٢٨]. ويرى الجرجاني أن الصورة قد تكون غامضة، ولكن ليس وراء غموضها أية قيمة فنية، وهو التكلف الذي ذكره أصحاب أحدث المذاهب النقدية اليوم مثل الرمزية والسيميولوجية.

والاستعارة أمعن في الخيال من التشبيه، لكونها تتناسى أحد الطرفين دائماً. وهي عند الجرجاني لصيقة بالشعور أيضاً، ولذلك يعتبرها أقرب إلى الشعر، وإذا كانت المشاعر التي تحتوي عليه الصورة الاستعارية تعطيها قيمة جمالية، فإن طريقة بناء هذه المشاعر أو التعبير عنها في الصورة الاستعارية تزيد من هذه القيمة. وإذا كان عموم النقد العربي القديم يفضل التشبيه على الاستعارة، فإن الجرجاني يقول مفضلاً الاستعارة على التشبيه: "إنها آمن ميداناً، وأشد افتناناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعة من أن تحصر فنونها وضروبها، نعم وأسحر سحراً، وأملا بكل ما يملأ صدراً، ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويوفر أنساً"[٢٩]. وهذا الكلام ينم عن إدراك الجرجاني لمكانة الاستعارة في تكوين الجمال الشعري قبل الغرب بمئات السنين.

بقيت نقطة لا بد من الإشارة إليها وهي أن عبد القاهر الجرجاني سبق الغرب في قضايا نقدية كثيرة، حتى أننا نجد تشابهاً بين ما قاله أصحاب المنهج الأسلوبي والبنيوي ونظرية التلقي الحديثة وبين ما قاله الجرجاني. وإذا كانت المناهج النقدية الحديثة في الغرب قامت على أسس لغوية، فكذلك نظرية النظم البلاغية والنقدية قامت على أسس لغوية، وبشكل خاص على علم النحو. يقول الدكتور محمد

مندور: "إنه يستند إلى نظرة في اللغة أرى فيها، ويرى معي كل من يمعن النظر إنها تتماشى مع ما توصل إليه علم اللسان الحديث من آراء"(٣٠).

بربط هذه القضايا وغيرها عند الإمام عبد القاهر الجرجاني نستطيع أن نتلمس ملامح نظرية نقدية لديه، حيث ثمة جامع يجمع هذه الأفكار وهذه الآراء في منظومة نقدية متكاملة.

خلاصة البحث ونتائجه

أولاً: خلاصة البحث

ليس سهلا أن يسبح الإنسان ضد التيار، وكذلك ليس سهلاً أن يدافع الإنسان عن النقد العربي الإسلامي في ظل سيطرة المقولات التي تضعفه وتقلل من شأنه، وتصفه بأوصاف لا تليق به، والذي يدعو للأسف هو أن مصدر هذه الاتهامات هم المستشرقون الحاقدون على الإسلام.

بينت في هذا البحث علاقة الأدب العربي بالأدب الغربي وبالنقد الحديث، ثم ذكرت محاولات بعض النقاد المحدثين للوصول إلى نظريات نقدية في تراثنا الإسلامي، ثم ذكرت إمكانيات نسبة بعض النظريات إلى نقادنا القدامى مما له صدى في واقعنا النقدي اليوم، وأخيراً تحدثت عن ملامح نظرية عبد القاهر الجرجاني النقدية، وبينت أنها ذات صلة مباشرة بنظرية النظم المعروفة لديه، وحديثي عن نظرية عبد القاهر النقدية كان من خلال بعض القضايا النقدية لديه مثل قضية اللفظ والمعنى وقضية الغموض والصورة الشعرية التمثيلية والاستعارية.

ثانيا: نتائج البحث

١- النقد عبارة عن فكر، والنقد العربي في مجموعه نقد إسلامي.

٢- مصطلح "نظرية" مصطلح جديد، وهو من مخترعات العصر الحديث، رغم أن مضمونها قديم، ويعني فكراً منظماً مبنياً على أصول وقواعد معينة.

٣- عرف اليونانيون والرومان القدامى فكراً منظماً، لذلك تنسب إليهم نظريات مثل نظرية المثل ونظرية المحاكاة ونظرية التطهير.

٤- عرف العرب أيضاً فكراً منظماً وعقلاً مبدعاً، وخاصة بعد أن دخلوا في الإسلام، بفضل محاولاتهم فهم القرآن الكريم وبفضل البحث في إعجازه، ومن حقهم علينا أن ننسب

إليهم نظريات في النقد، بجمع شتات ما وصلنا من أفكارهم في قوالب عامة تأخذ شكل نظريات وفقاً للمفهوم الحديث.

٥- لم يكن عبد القاهر الجرجاني بدعاً بين أصحابه من علماء الإسلام ومفكريه، وإن كان حلقة هامة من حلقات النقد العربي الإسلامي وأهم نجم في سماء النقد في التراث الإسلامي العريق.

٦- إن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني نظرية ذات أساس لغوي وبلاغي ونقدي.

٧- يعد عبد القاهر الجرجاني من كبار النقاد المسلمين الذين كان لهم دور عظيم في ارتقاء النقد الإسلامي، وتأثير كبير فيمن جاء بعده من النقاد المسلمين.

٨- لم يقتصر تأثير عبد القاهر على المسلمين، فقد تعداه إلى النقد الغربي الحديث، فكثير من الأفكار والأسس التي بنيت عليها المذاهب الحداثية مثل الرمزية والأسلوبية والبنيوية ونظرية التلقي والسيميولوجية؛ الحداثية منها وما بعد الحداثية تأثرت بفكر عبد القاهر الجرجاني.

٩- نحن مقصرون تجاه نقدنا الإسلامي، فهو يطلب منا أن نلبسه الثوب الذي يستحقه. في الوقت الذي نحن منبهرون فيه بأحدث ما يصلنا عن الغرب من فكر تعود أصوله إلى أسس وثنية أو يهودية أو نصرانية أو علمانية أو حداثية أو ما بعد الحداثية.

١٠- والإمام عبد القاهر الجرجاني بالذات، وفكره النقدي بشكل خاص، يحتاج منا إلى اهتمام أكبر ودراسات أعمق، لنعطي هذا العلم حقه.

الهوامش

١- "حكمة الغرب"، الأستاذ برتراند رسل، ترجمة الدكتور جلال الشرقاوي، عالم المعرفة، عدد يونيو ٢٠٠٩ ط٢.

٢- "النقد العربي" الدكتور عبد المنعم تليمة والدكتور عبد الحكيم راضي، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية في كلية الآداب بجامعة القاهرة، طبعة عام ١٩٧٧م، ص: ٢٠١.

٣- "تاريخ الأدب الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري" المرحوم طه أحمد إبرايهم، المكتبة العربية، بيروت، ١٩٨١م، صفحة رقم: ب وجـ.

٤- "نظرية النقد العربي القديم في ضوء الخطاب الثقافي العام" الدكتور محمد صالح الشنطي، مقال منشور على الشبكة الدولية في عام ١٤٢٠هـ.

٥- المصدرنفسه.

٦- المصدرنفسه.

٧- "أصول النقد الأدبي"، الأستاذ أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، طبعة عام ١٩٨٥م، ص: ٣٤٤.

٨- "قراءة جديدة لتراثنا النقدي"، المجلد الأول، تأليف مجموعة من الباحثين، إصدار النادي الأدبي الثقافي بجدة (٥٩)، السعودية، ص:٢٠.

٩- "فصول في النقد العربي وقضاياه"، محمد خير شيخ موسى، دار الثقافة، المغرب، ص: ٧.

١٠- "النقد الأدبي" الجزء الأول، الأستاذ أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٢م، ص: ٧.

١١- الدكتور محمد صالح الشنطي أردني الجنسية، فلسطيني المولد، ولد بتاريخ ١٩٤٥/٩/١٣م في فجة- يافا. حصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها في عام ١٩٨٣م من كلية الآداب - جامعة القاهرة، وتخصصه الدقيق هو النقد الأدبي الحديث، وقد كان أستاذاً مشاركاً في جامعة الملك سعود.

١٢- المصدرنفسه.

١٣- "فصول في النقد العربي و قضاياه" الأستاذ محمد خير شيخ موسى، ص: ٩.

١٤- كان شاعراً وناثراً رومانياً، ولد عام ٦٥ ق.م، وتوفي عام ٨ ق.م.

١٥- لا يكاد يعرف عنه المؤرخون شيئاً إلا أنه وجد في القرن الميلادي الأول، لأن الخط الذي كتبت به المخطوطة المنسوبة إليه خط لاتيني يعود زمنه إلى هذا القرن.

١٦- أنظر على سبيل المثال المسرحيات اليونانية القديمة مثل مأساة هيبوليت للكاتب الشهير يوريبيدز. راجع كتاب"أشهر المذاهب المسرحية، ونماذج من أشهر المسرحيات"، الأستاذ دريني خشبة، مكتبة الآداب مطبعتها بالجماميز، ص: ٢٧-٣٢.

١٧- "نظرية عبد القاهر في النظم"، الدكتور درويش الجندي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٠م، ص: ٣-٥.

١٨- المصدرنفسه، ص٥-٨، وانظر كذلك "نظرية النظم عند عبد القاهر، بحث في مادة البلاغة وتاريخها"، الأستاذ عبدالله بن عبد الوهاب العمري، بحث دكتوراه قدم إلى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تحت إشراف الدكتور عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعلان، في عام ١٤٢٨هـ، ص: ٥-٩.

١٩- "نظرية النظم عند عبد القاهر، بحث في مادة البلاغة وتاريخها"، الأستاذ عبدالله بن عبد الوهاب العمري، ص:١٣.

٢٠- "دلائل الإعجاز"، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط٣، مصر، ١٩٩٢م، ص: ٤.

٢١- المصدرنفسه، ص: ٨١.

٢٢- المصدرنفسه، ص: ٤٨-٤٩.

٢٣- "دلائل الإعجاز"، ص: ٢٩٩.

٢٤- "ظاهرة الغموض بين عبد القاهر الجرجاني والسجلماسي" الدكتور محمود درابسة، أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية بجامعة اليرموك، مقال منشور على الشبكة الدولية.

٢٥- المصدرنفسه.

٢٦- "التراث النقدي، قضايا ونصوص"، الدكتور أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ١٩٩٨م، ص:١٢١-١٢٢.

٢٧- المصدرنفسه، ص: ١٢٢-١٢٦.

٢٨- "أسرار البلاغة" عبد القاهر الجرجاني، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، بيروت، ٢٠٠٦م، ص: ٢٥٥-٢٥٦.

٢٩- المصدرنفسه، ص: ٤٨.

٣٠- "في الميزان الجديد"، الدكتور محمد مندور، مؤسسات بن عبدالله، ط١، تونس، ١٩٨٨م، ص: ١٤٧.

فلسفة نظام التعليم المفتوح في ضوء القرآن والسنة

Philosophy of the Distance Education System in the light of Holy Qura'n and Sunnah

الدكتورة شهناز ظهير*

Abstract

This article is an effort to provide a detailed study about the philosophy of distance education system in the light of Islamic teachings. The ways of delivering Education have different techniques, philosophies and theories. A philosophy in the light of Qura'n and Sunnah is more effective than any other in implementation in an Islamic society like Pakistan. Islam is the religion of knowledge and Sciences, and seeking knowledge is compulsory for every man and woman in Islam. Each and every Educational process consists of both the components of teaching and learning. Distance Education System is the most modern way having all latest techniques and modalities, like on-line, off-line, Computer, T.V, Radio, Audio-Visual aids, flip charts contents, broadcast and non-broadcast materials etc. All possible digestive forms can be merge in the Distance Learning system and can be use to seek education by it. Today we must opt the way the world is going ahead and molding towards to take part in solving the problems of the illiterate society and to reduce the burden of illiteracy. Knowledge is the most powerful weapon in Islam which can play a vital role for a humanity based society by increasing literacy rate and introducing Golden Islamic Values in the field of education. Open Learning System has direct access towards spreading extended reflections in front of illiteracy, created by the current era by meeting the challenges of globalism and solving the issues of education in an Islamic way, and as an Islamic duty.

---

* الأستاذة المساعدة بقسم اللغة العربية، كلية العربي و العلوم الإسلامية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، اسلام آباد، باكستان.

التمهيد

لكل فلسفة زوايا وجوانب وأهدافها للتطبيق العملي وهي التي تؤديها إلى الفوزوالنجاح.تحتل فلسفة التعليم أوالتربية اية فلسفة تعليمية أوتربوية المركزالأول في العملية التعليمية أوالتربوية ومن هذه الفلسفة تنبثق أهداف التربية ومناهجها ومؤسساتها وطرقها ووسائلها في التعليم وفي التقويم لها كما تنبثق الجذوروالسيقان والأغصان والأوراق والأزهاروالثمارمن البذرة التي تودع في باطن الأرض ثم يكون منها تلك الشجرة أوذلك النبات اللذين يكونان المصادرالأولية لأسباب الحياة للإنسان والحيوان وغيرهما من الكائنات الحية[١]. إن الفلسفة الناجحة تشتمل على المستويات أوالمعاييرالمتوازنة بين متطلبات المتعلمين والمعلمين وتتعامل مع القضايا الموجودة في مجال التعليم وتكون قابلة للتطبيق أي تكون صالحة للزمان والمكان في أي مجتمع يريد أن يطبق فيه .العلم بلاعمل كشجرة بلا ثمر وكلاهما لازم وملزوم معا فإن مصطلح التربية أيضا لازم أن تكون مع التعليم[٢]. في العصورالحديثة أولت المؤسسات التربوية عناية خاصة لتحديد المقاصد والغايات والمناهج المعرفية والمعاييرالقيمة وفهم الطبيعة الإنسانية كعدة للإقلاع عبرالمستقبل وأطلقت على هذه كلها اسم فلسفة التعليم أوالتربية وأعطتها الكثيرمن طاقاتها العقلية ومقداراتها المادية[٣]. لابد من الفلسفات التعليمية والتربوية أن تطبق عمليا والحياة كلها فرصة للتعلم والتعليم. لأن التعليم لوكان مدى الحياة أوفي حالة الاستمرارله فوائد كثيرة وهوالأمر الشرعي المطلوب حسب التعاليم الاسلامية الخالدة الباقية التي تحث عليه وترتكزحول فضيلة تحصيل العلم والدعاء له كما يوجد أمرتكراري لطلب العلم في القرآن حتى نجده في الأحاديث النبوية بكثرة والعلم له مفاهيم واسعة متسعة بلاحدود وبلاقيود،لاحدود لها ولاقيود لها.هناك عدة مباحث لهذه المقالة فهي تدورحول الجوانب المختلفة لهذاالموضوع ممكن أن نلقي الضوءعلى كل واحد منه بالتفصيل :

المبحث الأول: فضيلة العلم في الإسلام

إن العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ماطلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لأن شرفه يثمرعلى صاحبه وفضله ينمي عند طالبه قال الله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِيْنَ يَعْلَمُوْنَ وَالَّذِيْنَ لَايَعْلَمُوْنَ﴾[٤]

وهذه الآية تفرق بين حالتين وأنها لاتجعل تتساوى الشخص العالم واالشخص غيرالعالم. فالعلم من مادة: علم يعلم علما معناه شق الشفة .مثلا:إن كان الشق في الشفة العليا أوفي الشفة السفلى أوفي الأنف أوفي الأذن أوفي الجفن أوفي كل هذه الاعضاء من الإبل ويقال له: الأعلم أوالأفلح أوالأخرم أوالأخرب أوالأشترأوالأشرم على الترتيب [٥].علم يعلم، علما: فالعلم، المعرفة والإطلاع. إن العلم مفهوم تحليلي استقرائي، ومعناه الأصلي شق الشيء للإبانة والتمييز وأما معناه الثانوي التابع لمعناه الأصلي فهوإبرازالشيء واظهاره وتمييزه وتحديده وتعيينه [٦].

تكررت مادة "العلم" ومشتقاتها ٧٧٥ مرة في كتاب الله، وجاءت كلها في محل التبجيل والإطراء على العلم وأهله،كما تضمنَت لومًا وتعنيفًا للجاهلين وأهل الأهواءقال الله تعالى:﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[٧].

وقال سبحانه وتعالى في فضيله القرآن، تعلمه والبيان:﴿**الرَّحْمَنُoعَلَّمَ الْقُرْآنَoخَلَقَ الْإِنْسَانَ oعَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾[٨].

ومن المعلوم أمرالله تعالى للحصول على العلم بالقراءة والقلم لكل إنسان مع خلقه في هذا الكون بأن أول ما نزل من القرآن قول الله تبارك وتعالى : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَoخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍoاقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُoالَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِoعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[٩] وهذاهوالوحي الأول الذي يدل على مكانة العلم ويحث على الحصول على التعليم موضحًا خلق الانسان من علق،العلم نعمة من نعم الله العظمى على البشرأن هيأ لهم السبل ليعلموا ما كانوا يجهلون فالإنسان في المجتمعات البدائية يكاد يكون جاهلاً جهلاً مطلقًا ثم ازدادت معارف البشرونمت، بما أودعه الخالق سبحانه وتعالى(١٠). والعلم ضد الجهل،الجهل هو ظلام والعلم هونوروحسب التعاليم الإسلامية طلب العلم فريضة ولازمة للإنسان لوكان ذكرا أوأنثى .تحددت غايات العلم أوالمعرفة عند قوله سبحانه وتعالى والقراءة أوالمعرفة بإسم الله غايتها الأساسية معرفة الله تعالى وشكره بالعمل عليها والحقيقة أن العلم حق لكل بشرفي هذا الكون كإنسان حي وحق لكل مسلم ومسلمة من جانب الإسلام ، وهودينا الإسلام الحنيف الخالص الذي دائماً يحث ويؤكد للحصول على العلم. إن النبي صلى الله عليه وسلم مدح العلم والعالم طلب العلم وطالب العلم في أحاديث كثيرة وأنه عليه الصلاة والسلام فرض على الجميع رجلاً

كان أوامرأة طلب العلم.وبخاصة فتح المدرسة "الصّفّة" (١١) بالمدينة المنورة وتعيين المدرسين والمعلمين جعله يؤمن نشرالعلم بالتدابير الفعلية والعملية أمرا مؤثرا مفيدا وتطبيقيا وأن هذه التدابير كانت مؤثرة إلى درجة أن المدارس قد انتشرت إلى القرى أيضًا في غضون عقدين من الزمان بعدرسول الله صلى الله عليه وسلم (١٢).

المبحث الثاني: فلسفة التعليم المفتوح

فلسف الفلسفة : الحكمة، تفلسف يتفلسف، تفلسفاً: وهو الفيلسوف وقد تفلسف (١٣) أخذ لحكمة وأصبح فيلسوفًا. والفلسفة تعني :الحكمة فما هي حكمة في التعليم المفتوح ؟ الجامعة التي تكون بلاجدران*(١٤) فلاحجاب ولاالمسافة أوالبعد بين الطالب والأستاذ ولكن كشف الستائرعن العلوم، إزاح الستارة عن الحقائق وتوصيل المعرفة .هي رموزفلسفية تدل على نظام التعليم الخاص الذي نسميه :"المفتوح"وهونظام غيررسمي أوغيرتقليدي.وحسب التعاليم الإسلامية طلب العلم فريضة لازمة للإنسان والجامعة المفتوحة،المعهد بنوعه الخاص تتميزبتصورها الفلسفي "المفتوح" وهي الكلمة التي تدل على الترحيب لكل واحد (١٥)، توفير تسهيلات وفرص التعليم عن طريق الجامعات والمكتبات والمتاحف للوصول إلى أكبرعدد من الجماهير(١٦) والجامعة المفتوحة تطرق أبواب الطلبة(١٧) بوسائلها التعليمية و"التعليم على دهاليزأبواب الطلبة"هذا شعارالجامعة المفتوحة "العلم للجميع" هذه نعرة جامعة العلامة اقبال المفتوحة التي تقع في اسلام آباد عاصمة جمهورية باكستان الإسلامية فكلمة "مفتوحة" لها معان كثيرة وكلها تدل على الفيوض الجارية التي تشيرإلى فلسفة النظام المفتوح أوالجامعة المفتوحة .فتح . فَتّحَ فَتحًا البابَ :خلاف أغلقه و القناة :فجّرها ليجري فيها الماء، و الله عليه :علّمه وعّرف وسّره على فلان: باح له به .فَتَّحَ :فتّح، وشدّد للمبالغة .فَاتَحَ البَيعَ :سهّله .تفتّح :مطاوع فتّح و. ت الأكَمَة عن النَورِ :تشقّقت عنه، انفتح :مطاوع فتّح وعن الشيء انكشف عنه .افتتح واستفتح الأبواب :ضد أغلقها الفتح: نوع من الحركة يفتح لها الفم .و. ج فتوح :الرزق الذي يفتح به الله، الماء الجاري في الأنهار، الفتحة: المرّة من فتح، علامة الفتح.الفُتُح :الباب الواسع المفتوح، القارورة الواسعة المفتوحة . الفُتحة : ج فُتَح : الفُرجة .الفَتَّاح :فعّال للمبالغة،من صفاته تعالى لأنه يفتح أبواب الرزق والرحمة

لعباده .المِفتَح ج مَفَاتِح آلة لفتح الأبواب ونحوها،قناة الماء، المخزن،الخزانة،الكنز،المفتاح ج مفاتيح :آلة لفتح الأبواب ونحوها[١٨].

اللغة العربية الفصحى ليست بلغة الدين والشريعة الإسلامية فقط وإنما هي لغة أكثر من ٢٢ دولة عربية أيضا بحيث تقع عشرة دول داخل قارة اسيا وتقع اثناعشر دولة في قارة افريقيا (١٩). إن اللغة العربية لغة هدف الدول الإسلامية للتعليم والتعلم فهي لغة رسمية أيضا للبلدان العربية الشقيقة ومع ذلك هي لغة الترادف والمعاني والمفاهيم فتشعبت مراحل وأنواع الدراسة وأدت إلى ظهورأسماء متنوعة للتعليم والتعلم أيضا . فالمعاني الخاصة للمصطلح "مفتوحة" تشيرإلى عناصرالجامعة المفتوحة ودورها البارزفي عملية التعليم [٢٠].

إن النظام المفتوح للتعليم نظام إسلامي مئة بالمئة كما نلاحظ الثمرات والبركات في تطبيقه العملي فلا توجد الجدران في هذا النظام للتعليم منذ الالتحاق إلى النيل على الشهادة،لأن كل التسهيلات المتوفرة تنتظرالطلبة بصورة الوسائل الميسرة المتعلقة بهذا النظام وتتبع جامعة العلامة اقبال المفتوحة خطوات التعليم المفتوح لفرص كافية ومحوالأمية في أرجاء باكستان، تستخدم الجامعة المفتوحة الأجهزة الإعلامية الجماهيرية لاسيما الراديوالخاص أيف أيم ٩١,٦والتلفزيون التعليمي الخاص في عرض مناهجها كما ترسل المناهج المقررة للنصوص والكتب الدراسية للمنتسبين إليها بالبريدالبري والبحري والجوي والبريد الإلكتروني من مقرالجامعة بإسلام آباد .ان إطلاق الإسم ميغا اليوم للجامعة هذه التي فيها أكثرمن مئة الف طالب في دورة واحدة،فهي تقال جامعة "ميغا" (المراد به جامعة ضخمة لكون طلبتها يتجاوزعن مائة ألف أوألوف) أيضا فالجامعة المفتوحة لها اكثرمن خمسة عشرمئة الف طالباً في دورة[٢١].والجامعة المفتوحة هذه منفردة في باكستان لأنها تذهب إلى القرى البعيدة والبوادي النائية والجبليات والصحراءات التي فيها نسبة التعليم منخفضة جدًا لأجل فتح أبواب التعليم والمعرفة للناس هناك [٢٢].

نعرف أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هوالرائد الأصيل الذي جاء على رأس طورالعلم والعالمية فعبرالمستقبل كله واكتشف تفاصيله لتشتق منها الأجيال غايات الإقلاع ومقاصد الإبحارعبرالمستقبل والحقائق التي طرحها من خلال الوحي هي التي تتطابق مع الواقع في كل لحظة يتحول فيها الغيب إلى واقع محسوس والمستقبل إلى حاضرمشهود(٢٣) والواقع أن التعليم ونشره في العالم

هوصوت الوقت بين الناس أيا ما كان أحوالهم وظروفهم وأعمارهم والجامعة المفتوحة لا تتميزعن الجامعة التقليدية فقط في الأساليب المتعددة التي تستخدمها للتعليم عن بعد وإنما أيضاً في مفهومها الفلسفي للانفتاح حيث إنها توفر التعليم الجامعي لجميع القادرين عليه بغض النظرعن أعمارهم وأوضاعهم الاجتماعية أومؤهلاتهم العلمية[٢٤].يرى الأستاذ البريطاني الكبيرلويس شيستر(*٢٥)أن الأهمية الحقيقية للجامعة المفتوحة تكمن في أنها الحقل الوحيد الذي تجري فيه التجارب في مضمارطرق التدريس الحديثة[٢٦].هكذا يشيرنا إلى إنضمام طرق التدريس الحديثة في مجال التعليم كصوت الوقت لتلبية التقدم المعاصر الذي يتحدى أمامنا اليوم.

إن ثمرة التعليم والتعلم لها فوائد عظمى وهي مترابطة ومتماسكة ومتسلسلة من الفرد إلى الأمة لما كان للمعرفة ثمارها المادية والإجتماعية والحضارية التي تجعل صاحبها يسخرالكون ويتراءى له كأنه ملك ناصية كل شئ فإن المعرفة المبتورة من معرفة الله تدفع بالإنسان الذي يبلغ هذه المنزلة الحضارية إلى تجاوزحدوده والطغيان وتوهم الإستغناء بنفسه والإستقلال بوجوده وينسى الحقيقة التي تتكررظواهرها يوميا وهي:"الرجعى" الإنسان إلى ربه كما أشارسبحانه في كتابه المبين(٢٧) . ومن مؤهلات الإنسان التي منحت من الله جل وعلا : التسخيروالتقدم والتربية وهي التي من القدرات العقلية والمهارات الجسدية التي تمكن الإنسان لتيسيرالحياة والتمتع بالخيرات ولتذليل العقبات والمصاعب التي تواجهه في حياته وإلى هذه الخاصية الإنسانية كانت الإشارات القرآنية من أمثال الآيات المختلفة للتسخيروالتقدم والتربية (٢٨).

المبحث الثالث: التطبيق العملي للتعليم المفتوح

اليوم محوالأمية مطلوب في العالم كله وهذه رسالة إسلام فالتعليم المستمرمدى الحياة حق من حقوق الآدمية كصوت الوقت الحاضرأوحاجة العصروهذا أيضا تماما حسب التعاليم الإسلامية في الأهداف معا،فالتغيرالمعرفي والتغيرالتكنولوجي والتغيرالمؤسسي الدائم بما تحمل من تعقيدات وضغوط اقتصادية واجتماعية على الفرد والمجتمع،تحتم أن يلتقي الإنسان والعلم ،في ساحة التعليم والتعلّم،بصورة دورية منتظمة ودون مساس،في الوقت نفسه مصادررزق الإنسان ومستوى معيشته وهذا لايتأتى إلا بوجود نظام متصف بالصفات المتنوعة العديدة مثل نظام التعليم عن بعد والتي تمثّل الجامعة المفتوحة

أحد وأهم أنواعه،ولن يستطيع التعليم الجامعي بالنظامي التقليدي،مهما أعطى من إمكانيات مادية،أن يقوم بهذه المهمّة[٢٩].فالجامعة المفتوحة ليست إلا تطبيقاً واحدًا لنظام التعليم المفتوح الذي طبق في كثيرمن الدول لتحقيق أهداف تعليمية متعددة الأنواع ومنها محوالأمية توفيرالتعليم الجامعي للبالغين الذين فاتتهم فرص التعليم بالجامعات الرسمية وتوفيرفرص التدريب المهني والفني وبرامج التدريب أثناء التوظيف فالنظام المفتوح أوالتعليم عن بعد من أنجح محاولات مهمة في العصرالحاضرلغرض محوالأمية[٣٠].

إن التعلم من أوليات العالم في هذا الحين وهو واجب ديني وواجب دنيوي في الإسلام معًا.مع تغييرات الزمن ومرور الوقت ابتكرت تقنيات حديثة في كل مجال من مجالات الحياة حتى في مجال العلم أيضاً توسعت المفاهيم وتوسعت الأنظمة والأساليب لعملية مكافحة الأمية.العلم يجعل خلق ثقافة الحقوق الإنسانية [٣١] في العالم الآن .هناك معاهد وجامعات كثيرة في العالم التي تكون في جهود متسابقة لحقوق الإنسان ورعايتها للتعلم .التعلم هوأول حقّ الإنسان من جانب الله عزوجل في هذا الكون.هناك مركزالحقوق الإنسانية الذي فيه قسم البحث على التعليم العملي والنظري بجامعة أيسكس البريطانية ولاتزال هناك موضوعات متعددة دائماً مستمرة البحوث على حقوق الإنسان[٣٢]هذا المركز يمتاز بالبحوث المستمرة والتحقيقات الحديثة في هذا الصدد .

التعلم ميزة في مجال المعرفة إن للمتعلم منزله عظيمة بين الناس فإنه ينال الإحترام من جميع فئات السن.أما الجاهل فهو مجرد انسان عديم الفائده ،ليس له أي هدف في حياته .ويكون كريها بين الناس لأنه لايفرق بين تعامله مع فئات السن الصغيرة والكبيرة فالفرق بين العالم والجاهل :لايعرفه الجاهل،إنما يعرفه العالم كما قال تعالى :﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[٣٣] إن المعرفة هدى ونور،فالعالم يعرف ما في نفس الجاهل لأنه كان في يوم ما جاهلا، والجاهل لايعرف ما في نفس العالم،لأنه لم يتعلم. كما وجدنا في رأي العلماء الكباروحسب أرسطو:"الجاهل يشك ،والعالم يؤكد ،والعاقل يتروَّى"[٣٤].

بالرغم كل ما يبدوعلى السطح من يسرفي تناول المعلومات وتناقلها إلاأن الأميين يتزايدون في العالم بدلاً من أن تتناقص أعدادهم .ونجد أن العالم الأول لايستغل موارد العالم الثالث فحسب بل يستعمره ثقافيًا بواسطة إرسالياته التعليمية ويبث بلغته وثقافته ولكن السؤال يبقى أن الحروف المكتوبة بمئات اللغات تحتاج المعرفة لايعلم عنها الكثيرمن الجنس البشري[٣٥] الذي يحتاج إلى التعليم ومكافحة

الأمية ومتطلبات التعليم في العالم الثالث عن طريق رسمي لاتستطيع الكفاية لأن السكان يزيد عددهم كل يوم ألوف من الناس وهم حرموا حرمانًا يائساً بعيدين عن التعليم كلياً وعلى جانب آخرهناك حاجة إلى التعليم المستمرللناس المثقفين المتعلمين[٣٦] ليجعلوا تعليمهم حسب متطلبات العصرلمواجهة تحديات التكنولوجيا الحديثة في هذا الصدد.الأمرلايقتصرإلى حد الباكستان ولكن العالم كله اليوم يواجه تحديات الوقت المختلفة وعلى رأسها محوالأمية وتعميم التعليم.توضح الدراسة حاجة إلى تحديث بنى نظمه التعليمية لتستجيب مع الانفجارالسكاني وزيادة الطلب الاجتماعي على التعليم وبصفة خاصة التعليم العالي،هذا يدعو إلى ضرورة الأخذ بنظم التعليم المفتوح الذي تمثل الجامعة المفتوحة أحد أشكاله.

المبحث الرابع: الربط بين عناصرعملية التعليم الثلاثة وخصائص النظام المفتوح

في ضوء معطيات العصرومتطلباته أصبحت اليوم عملية التعلم والتعليم مسؤولية الجميع وعلى رأسهم المعلم،الذي نطمح أن يكون بمقدوره مزاولة عمله على أسس علمية تتماشى مع طبيعة التقدم العلمي والتقني وطبيعة المجتمع في ظل المفهوم الجديد للمدرسة الحديثة بحيث أصبح اليوم بمقدورنا الاتجاه بثقة كاملة نحوالجودة وأن نتحول إلى صناعة الاحتراف في العمل التربوي من خلال لقاءات مميزة وفريدة مع نخبة من العلماء والمفكرين التربويين الذين سيقومون خلاصة تجاربهم ونتاجهم العلمي والعملي في مجال التطويرالتربوي. وفي ضوء ذلك يمكن تلخيص الأدوارالمناطة بالمعلم بالآتي :

١- المعلم موصل تربوي ومطورتعليمي.

٢- المعلم قائد ومحرك للنقاشات الصفية.

٣- المعلم مشرف وموجه تربوي[٣٧] .

المعلم هو: العنصرالأول النشيط يقوم بدورهام للتواصل بين العنصرين الأخريين في عملية التعليم ودوره دورالهيكل العظمي فيهاولابد من أن يكون مزودا بالعلوم والتكنولوجية الحديثة فيعتبرالمعلم لبنة أساسية في العملية التعليمية،وله الدور الأكبرفي توجيه هذه العملية، فهوالذي يقدم المادة العلمية للطلبة،مسبوقة بجملة من القواعد التربوية التي يقوم بتربيتهم عليها ،استكمالاً لدورالأسرة،ولكي نتصف المعلم بأنه مثالي ومميز،يجب أن يتصف بصفات ما يلي :

١- ينبغي أن يكون ذا شخصية قوية.

٢- يتميز بالذكاء والموضوعية والعدل والحزم والحيوية والتعاون.

٣- وأن يكون مسامحاً في غير ضعف، حازماً في غير عنف.

٤- أن يكون مثقفاً، واسع الأفق، لديه اهتمام بالاطلاع على ما استجد في طرق التدريس، وفي مادته.

٥- وأن يكون أداؤه للعربية صحيحاً، خالياً من الأخطاء.

٦- وأن يكون محباً لعمله، متحمساً له، متمكناً من المادة الدراسية التي يقوم بتدريسها، يحسن العرض لها، وأن يكون على علاقة طيبة مع طلابه وزملائه ورؤسائه.

٧- قادرعلى أن يقسم وقته بين مجالات نشاطه وعمله العلميّ وبيته وأهله .

٨- يعد عرض المعلومات والمهارات للطلاب دوراً أساسيّاً مطلوباً منه ويعمل عليه .

٩- الحكمة في إدارة الصف؛ وهي تتضمن التفاهم والتعاطف مع طلابه، وتوجيههم وإرشادهم فرديّاً وجماعيّاً، والاهتمام بالقيم الروحية والأخلاقية لهم.

١٠- ومراعاة حاجات الطلاب العلمية والاجتماعية، والقدرة على المحافظة على النظام في الصف، ومواجهة المواقف المعقدة.

١١- تنمية روح الانضباط الذاتي لدى طلابه،واحترام أنظمة المؤسسة التعليمية من خلال الاقتداء بمعلمهم،في حسن أدائه لرسالته [٣٨].

والعنصرالثاني في عملية التعليم هو :"الطالب" والطالب له أهمية خاصة ودورخاص وحسب الماوردي الشروط التي يتوفرهاعلم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط وهي :

١- العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

٢- الفطنة التي يتصورها غوامض العلوم.

٣- الذكاء الذي يستقربه حفظ ما تصوره وفهم ما علمه.

٤- الشهوة التي يدوم بها الطلب ولايسرع إليها الملل.

٥- الإكتفاء بمادة تغنيه عن ملف الطالب.

٦- الفراغ الذي يكون معه التوفرويحصل به الإستكثار.

٧- عدم القوالع المذهلة من غموم وأشغال وأمرض.

٨- طول العمرواتساع المدة لينتهي بالإستكثارإلى مراتب الكمال.

٩- الظفربعالم سمح بعلمه متأن في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة فهوأسعد طالب وأنجح متعلم [٣٩].

والعنصرالثالث في مثلث العملية التعليمية هو:المادة التعليمية وهي التي لابد أن تكون ملائمة مع الأحوال والظروف للعنصرين الأخريين (٤٠) يعتبرإعداد المواد التعليمية واختيارها من الأمورالهامة التي لابد من أن نلاحظها بالدقة بالنظرة العميقة لها في البرامج التعليمية عند التخطيط لكي نواجه التحديات المعاصرة للعولمة وكذلك لتحقيق هذه الأهداف التربوية المباشرة وغيرالمباشرة والخاصة بأساليب التعلم النشط تستخدم تجهيزات وأدوات معينة والجديربالذكرهنا أن نبين هذه الحقيقة أن لابد من المعرفة لناعن أهمية الإنسجام والتطبيق له في عناصرعملية التعليم الثلاثة ومن الممكن أن نذكربعض أهم الخصائص التربوية الأخرى للجامعات المفتوحة التي تشيرإليها فالعمليات التربوية للجامعات المفتوحة فيها العناصرالثلاثة المنسجمة وهي تتمتع بالخصائص التالية :

– تعدّ المواد التعليمية،في أغلب الأحيان والأحوال حتى الآن،على شكل مقررات مطبوعة،معروضة بأسلوب التعلم الذاتي الذي يسهل على الدارس التفاعل مع هذه المادة عند مايقرؤها وحده .هذا الأسلوب له مقومات وعناصرمعروفة تصاغ وفقها معظم المقررات المطلوبة في الجامعات المفتوحة.

– يوجد تفاعل بين الدارس والمعلم أوالمشرف الأكاديمي عن طريق وسائط،منها المراسلة والهاتف والناسوخ أوالفاكس والبريد الالكتروني والمؤتمرات التي تعقد عن طريق الفيديو أوالحاسوب .يلاحظ أن التفاعل قد يكون فردياً (أي معلم– دارس) أوجماعياً المعلم .مجموعة دارسين،أو(معلمون . مجموعة دارسين).

– وفي معظم الجامعات المفتوحة تعقد لقاءات صفية وجها لوجه بين المعلم والدارسين،ولكنها تكون قليلة العدد ومحدودة الأغراض.تعقد مثل هذه اللقاءات عادة في مراكزدراسية موزّعة في مناطق عمل الجامعة .وتجدرالإشارة إلى أن بعض الجامعات المفتوحة تمتنع كلياًعن عقد لقاءات وجهاً لوجه بين

المعلمين والدارسين.معظم الجامعات المفتوحة تتوفردعماً غنياً ومنظماً لعملية تعليم الدارسين،وغالباً مايتخذ هذا الدعم شكل :

-التوجيه والإرشاد.

- تزويد الدارسين بملحقات للمقررات الدراسية التي بين أيديهم.

- تزويد الدارسين بأشرطة فيديو تكمل وتغني المقررات الدراسية التي يسجلون لدراستها.

- بث تلفازي موجه لإغناء مقررات مختارة يدرسها الدارسون من مختلف المستويات.

- بث إذاعي موجه لإغناء المقررات الدراسية.

- بث محاضرات أومناقشات أوعروض بوساطة الأقمارالصناعية.

- تزويد الدارس بتمارين ليقوم بحلها وإرسالهاإلى المعلم أوالمشرف الأكاديمي ليقوم بتدقيقها والتعليق عليها وإعادتها إلى الدارس المتعلم [٤١].

في النظام المفتوح فرصة منتهزة للتعلم والتعليم للجميع من المهد إلى اللحد في المنزل وفي المكتب في السفروفي الحضر لأن التعليم عن بعد هوتعليم يقدم للطلبة المقيمين في أماكن بعيدة عن الحرم الجامعي يكون فيه الطالب منفصلا انفصال مؤقت أوانفصال جغرافي عن الأستاذ.

- انفصال شبه دائم بين المتعلم والمعلم خلال فترة العملية التعليمية وهذا ما يميزالتعليم عن بعد عن التعليم وجها لوجه.

- تأثيرالمؤسسة التعليمية في تخطيط وإعداد المادة التعليمية وفي توفيرخدمات دعم للطلبة وبالتالي تميزه عن الدراسة الخاصة وبرامج التعليم الذاتي.

- استخدام وسائط تقنية مثل الطباعة والوسائط السمعية والمرئية والحاسب الآلي تحتوى على محتوى المقررالدراسي.

- توفيرالاتصال بطرقتين بحيث يمكن للطالب الاستفادة من الحوارأويمكنه البدء في الحواروهذا ما يميزه عن الطرق التكنولوجيا الأخرى المستخدمة في التعليم.

- الغياب الشبه دائم للمجموعات التعليمية خلال فترة العملية التعليمية بحيث يدرس الطلاب عادة بشكل فردي وليس في مجموعات مع إمكانية عقد اجتماعات أحيانا(٤٢).